الْعَقَبَاتُ الّتِي تَعْتَرِضُ المَشْرُوعَ الحَضَارِيِّ في الْفِكْرِ الإسْلاَمِيِّ وَحُلُولهَا

أ.م.د. محمود محمد داود الصميدعي

The Obstacles that Intercept the Civilized Project in The Islamic Thinking and their Solutions

Assit. Ph. Mahmood Muhammed Dawood Al Sumaida'e

The obstacles that Islamic thinking was intercepted whether they were outer or interior had a direct effect on it, so the civilized project could not awakened just if started with upright program that takes from it's past and works for its present to reach and discover what is the civilization and it's contents. and to know the obstacles that put across it's way and cures it so it won't grown up , also we have the right in dealing with the western civilization carefully ,especially in worldliness field but not to effect with the basic principles for the Islamic thinking

Les obstacles et leurs solutions qui affrontent le projet civilisationnel dans l'idéologie islamique

Prof. ajoint. D : Mahmoud Mohammed Daoud Al Sumaidaee.

Les obstacles externs et internes que l'idéologie islamique a subis y avait un impact direct, de sorte qu'on puisse avancer par ce projet civilisationnel sans qu'il commence par un juste programme attirant ainsi directement de son passé et le fonctionnant ensuite dans le présent à fin de révéler la forme et le contenu de la civilisation, et de bien connaître les obstacles qui étaient placés sur son chemin pour les traiter à fin qu'ils ne s'agravent pas, nous avons ainsi le droit de traiter patiemment avec la civilisation occidentale, en particulier dans le domaine laïque sans qu'il affecte sur les principes de base de l'idéologie islamique…

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العباد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنام، والرضا عن الأتباع من الأصحاب والأزواج والأحفاد .

أما بعد:

فإن معظم الدراسات التي تدور حول الصراعات الفكرية تحمل طابعاً مختلفاً في نوعه، لذا يجب الوقوف على بدايات هذه الصراعات التي بدأت تتغلغل في ثنايا المسلمين وهم ركود .

إن نظام المشروع الحضاري الإسلامي عام وشامل، فأردت في هذا البحث أن أقف على أهم العقبات التي أوصلت الأمة الإسلامية إلى الهاوية وأبعدتها عن المنهج القويم، منهج الوحي الإلهي بما فيه من قيم ومبادئ، فكان هذا البحث مقسماً على:

ثلاثة مباحث وخاتمة .

الأول: يتحدث عن أهم العقبات الداخلية والتي تعني العقبات التي حدثت جرّاء تصرفات أفراد هذه الأمة بسبب انحرافهم عن المنهج القويم وجهلهم بتعاليم هذا الدين من خلال الحركات السياسية وبث الفرقة بين الطوائف والتنازع المذهبي وابتعاد العلماء عن الوحي الإلهي والمنهج الرباني .

والثاني: جاء الحديث فيه عن العقبات الخارجية التي يحوكها أعداء هذه الأمة ليوقفوا عجلة الحضارة الإسلامية، فحاربوا المسلمين في عقر دارهم من خلال بث أفكارهم المادية بين صفوف المسلمين عن طريق الحركات الاستشراقية والتبشيرية والعالمية والعولمة .

أما المبحث الثالث: فبعد تشخيص هذه العقبات لا بد أن يكون هناك حلٌ وسبيلٌ للنهوض من أجل استئناف عجلة التطور الحضاري في الفكر الإسلامي وذلك بإتباع المنهج الرباني والاعتماد على الأحكام الإسلامية بعد التخلص من الأفكار العولمية العالمية الهدامة للفكر الإسلامي ومشروعه الحضاري .

أما الخاتمة: فبيّن فيها الباحث أهم النتائج التي توصّل إليها .

والله من وراء القصد ..

المبحث الأول

العقبات الداخلية

أولاً : الحركات السياسة (حقيقتها ودوافعها ونتائجها)

لم يُصب المسلمون بداءٍ مثلما أصيبوا بهذه العقبة الكؤود التي كانت وما زالت المصدر الرئيس لمروق الأفكار وفسادها، والسبب في هذا –والله أعلم– أن طبيعة الإنسان غالباً ما تكون ميولها مفرطة نحو القيادة، وبالتالي قد تضطر إلى تغيير أفكاره، وأحياناً يحاول الإنسان تغيير أفكاره خوفاً من السلطان أو تملقاً له .

إننا نعيش اليوم –بسبب هذه العقبة– فرقة مزقت أمة الإسلام شيعاً وأحزاباً ودولاً وممالك قام بينها التناحر والخلاف والشقاق وسفك الدماء وانتهاك الأعراض، ومن خلال هذا الخلاف دخل العدو الكافر وحدث الفساد الكبير الذي حذرنا الله منه بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ ﴾[١] .

إن حب السلطة والقيادة غالباً ما يكون نابعا من التصادم الفكري إذ أن كل فرقة أو جماعة تريد أن تستولي على زمام الأمور ظناً منهم أنهم أحق بالقيادة من غيرهم، وهذا الظن مبني على سوء الفهم الذي جعلهم يُلغون دور المقابل .

ولو نظرنا إلى السبب الذي أضاع إسبانيا وصقلية لوجدناه يتركز في انقساماتهم الداخلية على الخصوص، فقد أجلاهم النصارى عنهما بسبب تنافسهم الدائم فيهما[٢].

ولقد أشار النبي ﷺ إلى هذه العقبة بقوله: ((إن أول دينكم نبوة ورحمة، ثم تكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكا وجبرية، يستحل فيها الدم))[٣] ، وبالفعل فقد

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٣ .

(٢) حضارة العرب : غوستاف لوبون، ٦٠٨ .

(٣) مسند البزار: أبو بكر أحمد بن عمرو البصري الشيخ، الإمام الحافظ الكبير، ت: ٢٩٢هـ، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، الناشر: مؤسسة علوم القرآن، ومكتبة العلوم والحكم– بيروت ، المدينة – ط١، ١٤٠٩هـ ، ٢٢٣/١، برقم: ١٢٨٢ .

شهدت الحقبة المتمثلة في الخلفاء الخمسة الأُوَل نظاماً صحيحاً قائماً على مبدأ الشورى وبشكل متكامل دون غيرها من الحقب، ولا شك أننا نجد الخلفاء الراشدين قد جاؤوا إلى الخلافة عبر أربع طرق مختلفة ولكنّها مع اختلافها وتباينها قد مثلت لجمهور المسلمين أربع نظريات أو أمثلة شرعية يمكن من خلالها اختيار خليفة للمسلمين أو إمامهم، وهذا التنوّع في حقيقته هو مما قدمته الحضارة الإسلامية للإنسانية كلها في مجال اختيار الحاكم أو الزعيم .

أما الطريقة التي تمّ اختيار الصدّيق فيها فيمكن أن نطلق عليها طريقة الاختيار الشعبي المباشر.

وأما ما قام به أبو بكر من عهدٍ لعمر بن الخطاب ﷺ الذي لم يكن جبراً على المسلمين، فهو بمثابة إجماع الأمة على مرشح الخليفة السابق .

والآلية الثالثة التي قدمتها الحضارة الإسلامية في منظومة السياسة العالمية ما رأيناه من ترشيح ممنهج من الخليفة عمر ﷺ لمن يأتي من بعده، فقد اختار ستّة من كبار صحابة رسول الله ﷺ وهم الذين اجتمعت آراء المسلمين داخل المدينة وخارجها على مكانتهم وفضلهم، ومن ثم صلاحيتهم لتولي إمامة المسلمين، وهذه الطريقة التي استحدثها عمر بمثابة تنافس المرشحين بطرق شرعية على منصب الخلافة .

والطريقة الرابعة التي تم اختيار الخليفة الراشد على بن أبي طالب ﷺ من خلالها كانت في غاية الأهمية، ويجب الوقوف عليها لأنها كانت ملازمة لأحداث استثنائية مرّت بها الدولة الإسلامية حينئذ، وهذه الأحداث كانت الفتنة بعينها، ومن ثَمّ كان من الضروري أن تدرأ الأمة هذه المفسدة قبل استفحالها، فلم يكن بدّ من أن يسرع المسلمون لمبايعة رجل بمكانة علي بن أبي طالب ﷺ وهو ما تم بالفعل حتى إن عليّ بن أبي طالب قد اشترط أن تكون بيعته عامةً في المسجد، ولقد كان بعضهم أمثال عبد الله بن عباس ﷺ في تخوّف من البيعة في المسجد وسط هذه الفتنة وأحداث الشغب، لكن البيعة قد تمت بالفعل من المهاجرين والأنصار في مسجد

رسول الله ﷺ وهذه الآلية الجديدة التي لجأ إليها المسلمون وسط هذه الأحداث الدامية يمكن أن نطلق عليها طريقة: اللجوء إلى الرجل المناسب في أوقات المحن[١] .

إن الناظر في تاريخ السياسة الإسلامية يجد أن هذه الحقبة الزمنية مثّلت أشكال العدالة في اختيار القائد مراعية في ذلك تنوّع الظروف التي تمّ بها ذلك الاختيار، ولست مغالياً إذا قلت: بأن في قوله ﷺ ((الخلافة بعدي ثلاثون سنة))[٢] إشارة إلى حثّ المسلمين على إتبّاع النظام الذي سلكه المسلمون في هذه الحقبة، فأصبح النظام الذي سار عليه المسلمون في هذه الحقبة كأنه سنّة من السنن التي أقرّها النبي ﷺ، الأمر الذي يبطل مقولة المستشرق الأيرلندي (ديلاس أوليري) إذ قال: (.. وكان الخليفتان الأولان من المؤمنين الأولين الذي كانوا أصحاب النبي في هجرته من مكة أما الثالث –عثمان– فقد كان كذلك من أصحاب النبي ولكنه كان ضعيفاً وكان ينتسب فوق ذلك إلى البيت الأموي الذي كان حينئذ يحتل مكان العنصر الارستقراطي في مكة فلمّا لم يستطع أن يخلص نفسه من المحسوبية –وتلك نقيصة من نقائص العرب– جعل فتح سورية ومصر والعراق وفارس غنيمة للطموحين من أهل بيته وهكذا أصبح مسؤولاً عن تحويل الدولة الإسلامية إلى الصبغة الدنيوية)[٣].

إذا ثبت هذا فنستطيع أن نقول بأن النبي ﷺ قد ترك كيفية اختيار القائد للفكر الإسلامي، إلاّ أنه حثّ المسلمين على الأخذ بالنظام الذي سيسلكه الخلفاء الخمسة من بعده، وهذه هي غاية الحكمة، إذ أنه لم يعيّن رجلاً بعينه لأنه يعلم بأن الظروف سوف تتبدّل ريثما تظهر الفتن، إذ على المسلمين أن يُعمِلوا عقولهم ويأخذوا بما يلائمهم في احتواء تلك الفتنة وإزالتها، لكي لا يتوقف مشروعهم الحضاري على

---

(١) ينظر: ماذا قدّم المسلمون للعالم، راغب السرجاني (ط١/ مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة – القاهرة ، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م)، ص٤١٢ وما بعدها .

(٢) صحيح ابن حبّان: كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم بذكر أسمائهم رضوان الله عليهم أجمعين، ٣٩٢/١٥، برقم: ٦٩٤٣ .

(٣) الفكر العربي ومكانته في التاريخ: ديلاس أوليري، ترجمة: د. تمام حسن ، (مكتبة الأسرة –الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، مصر ٢٠٠٧م) ص٧٠ .

أحد، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ (١) .

إن الحقب الزمنية التي جاءت بعد سيدنا الحسن ﷺ -الذي تمت به الثلاثون سنة- التي أخبر بها المصطفى ﷺ شكلّت -وللأسف- عقبةً كبيرةً أمام المشروع الحضاري الإسلامي ولا سيما جانب الفكر منه، إلّا أن هذه العقبة ترتفع نسبتها حيناً، وتقل حيناً آخر بناءً على تفاوت النسب في تطبيق المعايير التي من خلالها يتم اختيار القائد فضلاً عن فكر ذلك القائد ومبادئ حزبه التي تملى عليه، فلو عملنا مقارنة بين القرون الأولى، وبين وقتنا الحاضر لوجدنا النِسَب مختلفة في كثير من الوجوه، فعلى سبيل المثال: كانت حرية الفكر مكفولة إلى حدٍ لا يوصف، بدليل: ما شهده العالم الإسلامي في ذلك الزمن من تقدّمٍ في جميع العلوم والمعارف، إلا أن هذا لا يعني خلوّ تلك الحقب من مصادرة الفكر، فقد أخذت قضية المعتزلة -التي حجّمت من انتشار فكر علماء المسلمين- ردحاً من الزمن، وكل ذلك كان بمساندة من الدولة .

إلا أننا بالمقارنة مع واقعنا الحالي نجد أن الواقع أشد بكثير مما كان عليه في الماضي .

إن من أكبر الإثم الذي ترتكبه بعض الحكومات في البلاد الإسلامية مصادرة حرّية الدعوة إلى الإسلام بكونه عقيدة ونظام حياة، والوقوف في وجه الدّاعين إليه والعاملين لتحكيم شريعته وإقامة دولته وتوحيد أمّته، وتحرير أوطانه ونصرة قضاياه وتجميع الناس إليه ...، وليس معقولاً أن يطلق العنان في أرض الإسلام لدعاة العلمانية والماركسية والليبرالية وغيرها من المذاهب والفلسفات والأنظمة، وأن تُنشأ لها أحزاب ومنظمات، وتنطق باسمها صحف ومجلات .. ويفرض الحظر على الإسلام وحده وهو صاحب الدار، وتوضع الكمائم على أفواه دعاته وحدهم، وهم المعبّرون عن سواد الشعب وعن عقائد الأمّة وقِيَمها، فالدعوة إلى الإسلام الإيجابي

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥١ .

المتكامل –عقيدة ونظام حياة– أصبح بضاعة محظورة، وسلعةً مُصَادرة في عدد من أقطار الإسلام، والإسلام المسموح به هو: إسلام الجبريّة في الاعتقاد والابتداع في العبادة والسلبية في الأخلاق والجمود في التفكير والاشتغال بالدين دون اللباب(١).

والخلاصة هي أن السلاطين استطاعوا أن يمسخوا كثيراً من المبادئ الاجتماعية التي جاء بها الإسلام وضحّى الشهداء أرواحهم في سبيلها، فحوّلوها عن طبيعتها الأولى وجعلوها ركيزة من ركائز نظامهم، وهذا كان من أهم الأسباب التي جعلت المسلمين في عهودهم المتأخرة مطبوعين بطابع الجمود الفكري والاجتماعي، فلا نور في أغلبهم ولا نار، وصاروا لا يفهمون من الدين سوى القيام بالطقوس الشكليّة ثم يرفعون أيديهم بالدعاء: (اللهم انصر الدين والدولة)؛ أمسى الدين والدولة في نظرهم شيئاً واحداً، إذ المعارض للدولة هو عدو للدين، أما المصلح الديني فهو معارض للدولة(٢) .

إن هذه العقيدة الغاشمة التي أسبغت على السلاطين صبغة التقديس هي المسؤولة بالدرجة الأولى عمّا حلّ بالإسلام في عهوده الأخيرة من خنوع واستكانة، والإسلام بريء من هذه العقيدة، فالإسلام دين خالص يعرف مبدأ (الحق الإلهي)، ولكن السلاطين روّجوا هذا المبدأ بين الناس لكي يتخذوا من الدين دروعاً تحمي عروشهم وتخفي دناءتهم، فقد استبدّوا بالمسلمين وأضلّوهم عن الهدى وحجبوا عنهم مسالك النور وضيّقوا على عقولهم، فأدّى ذلك إلى موت قوى البحث ونشاط الفكر بين المسلمين، فأصيبوا بشلل في التفكير السياسي والنظر في كل ما يتّصل بشأن الخلافة والخلفاء(٣) .

---

(١) ينظر: الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف: أ.د. يوسف القرضاوي (ط١٢/ مطبعة أنوار دجلة – بغداد ، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م) ص٩٦ .

(٢) ينظر: مهزلة العقل البشري: د. علي الوردي (دار الحياة للنشر والتوزيع – قم – إيران) ص٢٦٥ .

(٣) ينظر: الإسلام وأصول الحكم: علي عبد الرزاق، تعليق: ممدوح حقّي (مكتبة الحياة، بيروت –لبنان ١٩٦٦م) ص١٠٢ .

ثانياً: الفرق والطوائف (وأثرها في تضليل الأفكار)

الفِرَق: جمع فِرْقة، والفِرْقة: هي الطائفة من الناس[١] .

أما الفُرقة: فهي مصدر التفرّق، والتفرق في الدين مذموم حذّر الله ﷻ منه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[٢] .

إن الدين الإسلامي باقٍ كما هو لا يشوبه زعم المبطلين ولا تأويل الجاهلين، وأيّ محاولة لتعكير صفوه، فإنها تؤدي بصاحبها إلى الهلاك، ومن المؤسف جداً ما شهده ويشهده التاريخ الإسلامي من ظهور الفرق والطوائف في الدين الإسلامي، وما تمخض عنها من ويلاتٍ وتبعات .

ولو رجعنا إلى السبب في ذلك لوجدنا أن الاختلاف في أغلب هذه الطوائف لم يكن منحصراً في الأحكام الفقهيّة فحسب، بل تعدّى ذلك إلى مسائل الاعتقاد التي لا تقبل النقاش فضلاً عن الاختلاف، وكلّ ذلك بسبب ضياع الهدف أولاً ثم لضياع حقيقة الدين أو بالأحرى للاختلاف على حقيقة الدين الذي يريده الله منّا .

وحقيقة الدين هي نموذجه الأسمى وصورته الصحيحة، فعقيدة التوحيد التي لا يقبل الله أحداّ دون أن يعتقدها قد أصبح عليها جدل طويل، إذ أن حقيقة الألوهية والربوبية وأصول الإيمان كل ذلك وقع فيه بين المسلمين خلاف يفرّقهم إلى مسلم وكافر، وموحّد ومشرك، ومتّبع ومبتدع .

فنتيجة الإحتكاك الفكري الذي يؤدي إلى انهزام فكر وانتصار فكر، أو إلى تأثر فكر بآخر، هي التي ساعدت على ظهور الطوائف، وهذا ما يبدو جليّاً من خلال قراءة تاريخ الفرق، فالناظر –مثلاً– في تاريخ الأشعري، يجد أنه كان من كبار قادة المعتزلة، وهذا يقتضي منه أن يكون متعصبّاً لفكره ولفكر طائفته أكثر من غيره، إلّا أنه في يوم وليلة وإذا به يعلن للعالم تبرّيه من هذه الطائفة، وإظهاره لفكر جديد لطائفة جديدة أُطلق عليها فيما بعد اسم (الأشعريّة) نسبةً إليه .

---

(١) ينظر: لسان العرب: ١٦٩/١١ .

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٩ .

فكان السبب في هذا كلّه: أن الإمام الأشعري كان من المناظرين لعلماء المسلمين الّذين يقدّسون النص مع إلغائهم لدور العقل، مما أدّى إلى تأثر الإمام الأشعري بهذا الفكر عن طريق تلك المناظرات، وبالتالي إلى إيجاد مخرج لهذه الأزمة التي استغرقت عدة قرون، مما حدا به إلى اتّخاذ طريق وسط بين المعتزلة، وبين علماء المسلمين، فقدّم النّص على العقل مع عدم إلغاء دور العقل .

وقد يكون هذا الاحتكاك الفكري مثمراً في الغالب، لأن كلا الفريقين يدّعي خدمة الإسلام، وبناءً على هذا فمن الممكن جعله ضمن قدرات مشروعنا الحضاري، إلا أن هناك نوع آخر من الاحتكاك الفكري، وهو الذي قام بين المسلمين وغيرهم، الأمر الذي أدّى إلى تأثر بعض المسلمين بثقافات غيرهم مما جعلهم يُدْخِلون أفكاراً غير إسلامية ويبنون عليها أصول فِرَقِهم وطوائفهم .

وقد شكّل هذا النوع من الاحتكاك خطراً كبيراً على العقيدة الإسلامية لولا أن الله ﷻ تكفل بحفظها، فنجد مثلاً: أن الفكر الصوفي في بدايته كان محط قبول لدى كثير من الناس لأنه لم يكن يتعارض مع النصوص الثابتة في الشريعة الإسلامية، ((فلم يكد يمضي القرن الثالث حتى ظهر أن نوعا من التصوّف الجديد مختلف عن تصوّف الحارث المحاسبي[١] والجنيد[٢]، وهو في حقيقته امتداد للتيارات التصوفية الفلسفية التي سبقت الإسلام تاريخاً، واحتك بها المسلمون في فتوحهم من خلال

(١) المحاسبي: الزاهد المعروف شيخ الصوفية أبو عبد الله، الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي، صاحب التصانيف الزهديّة، وله كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة والرافضة، مات سنة ثلاث وأربعين ومائتين . سير أعلام النبلاء: ١١٠/١٢ .

(٢) الجنيد: الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي القواريري، والده الخزاز، هو شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، وتفقّه على أبي ثور وسمع من السري السقطي وصحبه، ومن الحسن بن عرفة، وصحب أيضاً الحارث المحاسبي وأبا حمزة البغدادي، وأتقن العلم ثم أقبل على شأنه وتعبّد ونطق بالحكمة، مات سنة ثمان وتسعين ومائتين. سير أعلام النبلاء: ٦٦/١٤ .

مواجهاتهم الفكرية والثقافية، فظهرت فكرة (الإتحاد والحلول)[١] وفكرة (وحدة الوجود)[٢] وفكرة (الكشف والإلهام) وفكرة (الفناء) على ألسنة بعض المتصوفة وفي أدبيّاتهم، وهذا النوع من التصوّف يسمّيه البعض بالتصوّف الفلسفي))[٣] .

وهكذا تأخذ هذه العقبة بالتوسع شيئا فشيئاً إلى درجة أنها أخرجت كثيراً من الطوائف عن جادّة الصواب .

ومن الأسباب التي دعت هذه الفرق إلى التناحر والاختلاف هو أن جلَّ هذه الفرق أخذت في استدلالاتها العقلية ومجادلاتها للخصوم بقانون المنطق الأرسطي الذي يعتمد –في منهج الاستنباط– على ما يسمى بالقياس (Syllogism) والذي يتألف من ثلاثة أجزاء هي: المقدمة الكبرى، والمقدمة الصغرى والنتيجة، وهذا المقياس يقوم على مبدأ اليقين، فهو يعتمد على مسلّمات يفترض فيها الصدق المطلق، وهو لذلك يَعُدّ النتائج المستنبطة منها بالقياس الصحيح الذي لا بدّ أن تكون نتائجه يقينية لا شك فيها، وقد أصبح هذا المقياس مطيّة للأهواء الخاصة والعقائد المذهبية إذ أن كل من يريد أن يبرهن على صحة مذهب أو رأي معبّر، فليس عليه إلا أن يبحث عن مقدّمة كبرى تصلح لاستنباط الرأي أو المذهب منها، وليس من العسير أن يعثر على تلك المقدمة من أقوال الحكماء أو الأمثال الشائعة أو المأثورات الدينية أو غيرها، فهو عند ذلك يعدّها بديهية لا يجوز الشكّ فيها، ثم

---

(١) الاتحاد: أن تقترن ذات بذات حتى تصبح شيئاً واحداً، أي أن الخالق والمخلوق متّحدان في ذات واحدة – تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً . والحلول: أن تحلّ الذات الإلهية –كما يقولون– في ذات أخرى، كما تقول النصارى في المسيخ، حيث يقولون: إن الألوهية حلّت في المسيح، فعندما كان يحيي الموتى كانت الألوهية هي التي تحيي الموتى –تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرا– . شرح العقيدة الطحاوية: سفر بن عبد الرحمن الحوالي: ص٩٨٠ .

(٢) وأصحاب هذا المذهب يقولون: بأن الله والطبيعة حقيقة واحدة، وأن الله هو الوجود الحق، ويعتبرونه – تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيرا– صورة هذا العالم المخلوق . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص١٤٦ .

(٣) ينظر: نشوء الحضارة الإسلامية، ص٢٥٩–٢٦٠ .

يشهرها في وجه خصومه سلاحاً قاطعاً، وخصومه بدورهم لا يعجزون عن أن يفعلوا مثل فعله(١) .

ولنأخذ مثلاً الجدل الذي ثار في الإسلام حول استشهاد سيدنا الحسين بن علي ﷺ، فقد ذهب قومٌ بأن سيدنا الحسين كان مخطئاً في ثورته على يزيد، وأن يزيداً كان محقّاً في قتله(٢)، واستند هؤلاء في رأيهم على الحديث النبوي القائل: ((إنه ستكون هنّاتٌ وهنّاتٌ . فمن أرادَ أن يُفَرّقَ أمرَ هذهِ الأمةِ ، وهي جميعٌ ، فاضرِبُوهُ بالسيفِ، كائنا من كانَ))(٣) .

وجاء قوم آخرون يقولون على العكس من ذلك(٤)، وهم يستندون في رأيهم على حديث آخر يقول: ((سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله))(٥)، وحين دَرْسِ الرأيين حسب القياس المنطقي نجد كلاً منهما صحيحاً استناداً على صحة المقدمة التي استنبط منها، والظاهر أن المناطقة القدماء كانوا لا يفهمون هذا ولا يستسيغونه، ولهذا وجدنا كل فرقة من الفرق المتنازعة تأخذ من الأحاديث النبويّة الجانب الذي يلائم مقاصدها وينسجم مع النتيجة التي تريدها(٦) .

إن واقع أغلب الفرق المتناحرة هو أنها إذا تنازعت في شيء كان هذا التنازع بينها دليلا على أن كلاً منهما محق ومبطل في آن واحد، بمعنى أن أحد الفريقين

---

(١) ينظر: منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته: د. علي الوردي (ط١/ دار الحياة للنشر والتوزيع، قم – إيران، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م) ص٣٣ .

(٢) ينظر: العواصم من القواصم: أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي الاشبيلي المالكي، تحقيق: محبّ الدين الخطيب (القاهرة ١٣٧١هـ) ص٢٣٢ .

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب حُكْمِ مَنْ فَرَّقَ أَمْرَ المُسْلِمينَ وَهُوَ مُجْتَمِعٌ ، ٦/٢٢ برقم ٤٩٠٢ .

(٤) ينظر: نهضة الحسين، لهبة الدين الحسين (طبعة النجف – العراق، ١٩٤٦م) ص٩ .

(٥) مستدرك الحاكم: وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرّجاه، قال الذهبي: الصفّار لا يدرى من هو ٣/٢١٥ .

(٦) ينظر: منطق ابن خلدون في ضوء حضارته، ص٣١ وما بعدها .

يمثل جانباً واحداً وهو الحق، بينما يمثل الفريق الآخر الجانب الثاني، فكل منهما محق لأنه ينظر إلى وجهٍ معيّن من الحقيقة، وهو مبطلٌ لأنه يهمل الوجوه الأخرى، وهذا هو داء الفرق المتنازعة إذ لا تستطيع إحداها أن تكتشف شيئاً من الباطل في معتقداتها ما دام الجدل بينها قائماً[١] .

وهكذا بقيت الفِرَق والطوائف على هذا النمط الفكري المتأخر الذي أبعدها بصورة أو بأُخرى عن فهم أصول دينها بشكل صحيح .

والنتيجة: أن علمي الكلام والمنطق بشكلهما القديم هما السبب الرئيس في تناحر الفرَق، إذ لم يعد يفيدنا في صراعنا العصري، زيادة على ذلك أن علم الكلام القديم قد خلط في تقديم العقيدة الإسلامية بين الوحي الإلهي والاجتهاد العقلي في تصوير تلك العقيدة، ونحن لا نريد أن نرتكب هذا الخطأ الكبير، إذ من الضروري جداً في صراعنا الفكري اليوم وفي محاولتنا تغيير وجهة حياتنا الحضارية، أن نفصل بين الوحي الإلهي والاجتهاد العقلي، كي لا تتحول الاجتهادات العقلية إلى أصول ثابتة تحسب على الوحي المعصوم نفسه، فتعيق حركتنا العقلية الحاضرة وتسلب حرية مراجعتنا لاجتهادات أسلافنا، ثم تحول بيننا وبين الحركة باتجاه تأصيل حياتنا الفكرية في ضوء التغييرات التي تحدث في عالمنا المعاصر، وبالتالي فلا نستطيع التقدم خطوة واحدة إلى الأمام[٢] .

ولقد اجتمع بعض رجال الدين من المسلمين في مؤتمر لهم عقدوه في القدس قبل سنوات وكان قصدهم من هذا الاجتماع: أن يتفقوا على عقيدة واحدة، فيزيلوا أسباب الشقاق المستحوذ على طوائف المسلمين، فكل من ذهب إليه كان يعتقد أنه بالبراهين التي سيدلي بها يجذب المؤتمرين إلى مذهبه وبواسطته يتحد المسلمون، ومعنى هذا أن كل فريق كان مؤمناً بأن الحق بجانبه وأن الإتحاد الإسلامي لا يتمّ إلّا بإتّباع هذا الحق، اجتمعوا ثم تفرّقوا، وكانت النتيجة أن كل واحد منهم رجع إلى

(١) ينظر: مهزلة العقل البشري، ص٤٣ .

(٢) ينظر: المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري ، ص١٦ .

قومه يقول لهم: لقد دافعت عن الحق بكل قواي، ولكنهم لم يسمعوا قولي، ولو سمعوه لزال الخلاف بينهم ولانتصروا على العالم[١] ! .

فهذه هي نتائج هذه العقبة، فعلينا –نحن المسلمون– أن نعيد حساباتنا ونعمل على اجتيازها، ومن خلال مراجعة الأصول التي بنينا عليها علم الكلام والتي فرّقت المسلمين إلى فِرَقٍ وطوائف تدّعي كل واحدة منها أنها على حق وغيرها على خطأ والعمل على النفاذ إلى ما هو أصح، ولن يتمّ هذا الأمر إلّا بعد تجردنا من التعصّب الفكري القديم.

ثالثا: تراجع دور العلماء في المجالات الفكرية

لقد تفنّن كثير من الباحثين في ذمّ العلماء، فصبّوا عليهم التهم صبّاً في كثير مما يحدث من الانتكاسات التي يشهدها عالمنا الإسلامي .

يقول الأمير شكيب أرسلان[٢] : ((من أكبر المسؤولين عن انحطاط الإسلام أمام الله والناس هم هذه الطبقة التي يقال لها العلماء، فإنهم إلا النادر منهم اتخذوا الدين مصيدة للدنيا، جعلوا دينهم التزلّف إلى الأمراء وتسويغ جميع موبقاتهم بالأدلة الشرعية والإفتاء عليها من الدين، وقلّما أتى أحد الملوك والأمراء المستبدّين عملاً منكراً إلّا أتوا له من الآيات والأحاديث بما ينبئون له به مشروعية ذلك العمل، بصرف الآيات الكريمة عن معناها وتحريف الكلم عن مواضعه ورواية الضعاف

(١) ينظر: مهزلة العقل البشري، ص١٩٦–١٧٠ .

(٢) الأمير شكيب أرسلان: شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة، عالم بالأدب والسياسة مؤرخ من أكابر الكتّاب، ينعت بأمير البيان، من أعضاء المجمع العلمي العربي، ولد في الشويفات (بلبنان) وتعلّم في مدرسة (دار الحكمة) ببيروت، وعُيّنَ مديراً للشويفات سنتين فقائم مقام في (الشوف) ثلاث سنوات، وأقام مدة بمصر، وانتخب نائباً عن حوران في مجلس (المبعوثان) العثماني، وسكن دمشق في خلال الحرب العالمية الأولى، ثم (برلين) بعدها، وانتقل إلى جنيف بسويسرة فأقام فيها نحو ٢٥ عاماً، وعاد إلى بيروت فتوفي فيها سنة ١٩٤٦م . (الأعلام للزركلي: ١٧٣/٣) .

والموضوعات إلى غير ذلك من الإستشهادات التي يتوخّون بها الزلفى والجائزة))[١].

وفي المقابل نلحظ كثيراً من الباحثين من يرى: بأن العلماء لا دخل لهم بما يحدث في الواقع إنما الجهّال هم الذين كانوا السبب فيما يحدث، حتى قيل: ((... ما ابتدع عالم قط، ولكنه اسْتُفْتِيَ من ليس بعالم))[٢] .

وفي الحقيقة أن هذه المسألة تحتاج إلى نوع من البيان والتفصيل، فالحكم على مثل هذه الطبقة المرموقة في المجتمع بأنها سبب في انحطاطه غير مسلّم به، ومعلوم لدينا ما لهؤلاء العلماء من مكانة في الدين الإسلامي، ويكفيهم بأنهم ورثة الأنبياء .

وفي المقابل لا ينبغي لنا أن نرفعهم إلى درجة الأنبياء، فنبعد عنهم الخطأ، ونقول: بأنه ما ضلّ عالم قط، لأننا بهذا نكون قد نسبنا لهم العصمة – من حيث نشعر أو لا نشعر– وهي لا تختص إلا بالأنبياء.

إذا ثبت هذا نستطيع أن نقول: بأن الذين يحملون العلم على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: وهو أعلاها مرتبة، وتتمثل بأولئك العلماء المجددين المنفتحين في كل عصر الذين يأخذون بكل أسباب التقدّم والرقي الإنسانيين مع ملازمتهم لأصول الدين الإسلامي قولاً وعملاً، وهؤلاء هم الذين يسبح ذكرهم في سماء الفكر صباح مساء، إلا أن المشكلة فيهم أنهم كالجواهر نادرون .

والصنف الثاني: هم أولئك الذين أخذوا العلم، فأدّوه كما هو لم يجدّوا فيه جديداً ولم يضيفوا عليه شيئاً، أو أنهم أضافوا عليه لكن لم ترتق تلك الإضافة إلى تأسيس شيء جديد يواكب عصرهم الذي هم فيه، وهذا النوع يزداد كثرةً في وقتنا الحاضر ولا يخفى ما لهذا النوع من سلبيّة في حقل الفكر الإسلامي، ذلك لأنه مدعاةٌ لتحجير العقول وإغلاق باب التجديد مما يضطر مشروعنا الحضاري إلى الإبطاء في سيره التقدّمي، وبالتالي إلى التخلف عن ركب الحضارة .

---

(١) خصائص الفكر الإسلامي، ص٤٢ .

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، ص٥٢ .

ومن علامة هؤلاء الصنف الركود والجمود، إذ لا يستطيعون التقدم لأنهم لا يأخذون بأسبابه، فهم لا يعلمون بأن جمودهم على المنقولات هو سبب تأخرهم، بل إنّ كل الذي يعنيهم هو أن يكونوا قابعين في المسجد، ثم بعد ذلك لا يبالون أمات الناس أم عاشوا، وهذا الصنف من العلماء مطالبون بنفض غبار التخلف وركام التحريف عن تراثنا وثقافاتنا، ليعود للدين خلوصه ونقاؤه، ولتتحرر جماهير الأمة من أغلال الفهم القشري وقيود الفكر الرجعي المتزمّت، ولتستطيع ثقافة الإسلام الحقيقية مواجهة تحدّيات الحضارة المادّية المتقدمة وتموجاتها الفكريّة .

لقد أشار الدكتور محسن عبد الحميد إلى هذين الصنفين من العلماء بقوله: ((... وقد يقول قائل: إنّكم تظلمون المثقفين المعاصرين، فكيف يجوز أن يجهل كبار مثقفينا الإسلام ؟ ... ونستطيع أن نصنّف أولئك المثقفين إلى صنفين:

صنفٌ كانت دراسته للإسلام ومنهجه وحضارته عميقة شاملة ... وصنفٌ آخر لا يزال يصارع ثقافته الماضية التي شكلّت بقوة خلفيته الثقافية واقتناعاته الإنسانية))[١] .

إذن فهذا الصنف الثاني يشكّل عقبة أمام تقدّم الفكر الإسلامي، وهذه العقبة تتمثل في قصور فكر هذا الصنف عن الانفتاح على العلوم وتأسيس شيء جديد يتلاءم ومتطلّبات العصر وبالتالي يدفع عجلة الحضارة إلى التقدّم .

والصنف الثالث: وهم رأس البلاء وأساس الشقاء، والدّاء الذي يندر له الدواء، فهم كما قال تعالى: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ ﴾ [٢]، ويشتمل هذا الصنف على الذين أخذوا قشور العلم وجعلوها مقدّمات لأغراضهم التي يرنون إليها، فيؤولونها حسب ما يقتضيه المقام الذي يتناسب ومصالحهم، والمشكلة فيهم أنهم يصعب على الناس معرفتهم لأنهم يتزيّون بزي العلماء، إلا أن الحاذق لا تنطلي عليه ألاعيبهم، فهم منشغلون بالمجادلات التي جلبت المصائب لهذه الأمة، وليس همهم إلا الانتصار لرأيهم أو رأي طوائفهم ومذاهبهم، غاضّين الطرف عن

(١) ينظر: المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص١١٢-١١٣ .

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٣ .

قوله ﷺ: ((مَا ضَلّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلّا أُوتُوا الْجَدَلَ))(١)، ومن علاماتهم التزلّف إلى السلاطين، فهم يؤولون لهم أصول الدين التي لا تقبل التأويل لكي تتناسب مع سياسة الحاكم القائمة على القهر والتسلط في أغلب الأحيان، ولا يبالون بعد ذلك بما يحدث للناس من ظلم فما دام السلطان الظالم محاطاً بالفقهاء والوعّاظ – من هذا الصنف– وهم يؤيدونه فيما يفعل ويدعون له بطول البقاء، فمتى يستطيع أن يحسّ بأنّ هناك أمة ساخطة أو إلٰهاً مهدداً(٢) .

إنهم يميتون نزعة النبوغ في الشباب، وما دروا أنهم بهذا يعرقلون طريق المشروع الحضاري الذي يواكب الأحداث والمستجدات، ((وقد قالت العرب: عليكم بمشاورة الشباب، فإنهم ينتجون رأياً لم ينله طول القدم، ولا استولت عليه رطوبة الهرم، وقد قال الشاعر:

رأيت العقل لم يكن إنتهابا ... ولم يقسم على عدد السنينا
ولو أن السنين تقاسمته ... حوى الآباء أنصبة البنينا))(٣) .

وإلى هذا الصنف أشار الإمام الغزالي بقوله: ((فأدلّة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان ولم يبقَ إلّا المتمرسون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً حتى ظلّ علم الدين مندرساً ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، ولقد خيّلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند الطغام، أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى

---

(١) مسند أحمد: ١٣٨/٤٥، برقم ٢١١٤٣، وينظر: سنن الترمذي: للإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ت: ٢٧٩هـ ، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، (دار إحياء التراث العربي – بيروت) ٣٧٨/٥، وقال عنه: حسن صحيح .

(٢) ينظر: وعاظ السلاطين: د. علي الوردي (ط٢/ دار كوفان – لندن، توزيع دار الكنوز، بيروت – لبنان، ١٩٩٥م) ص٤٩ .

(٣) أصول الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، ت: ٤٥٠هـ. (ط٤/ دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م) ص٩ .

الغلبة والإفحام، أو سجع مزخرف يتوسّل به الواعظ إلى استدراج العلوم، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيبة للحرام وشبكة للحطام))[١] .

ولمثل هذا الكلام يقول الدكتور يوسف القرضاوي: ((... إننا نطالب الشباب بالاعتدال والحكمة والعدول عن التطرف والتشدد، ولا نطالب الشيوخ والكبار أن يطهّروا أنفسهم من النفاق، وألسنتهم من الكذب وحياتهم من الغش وأعمالهم من التناقض ... لقد ضاق الشباب ذرعاً بنفاقنا وتناقضنا، فمضى وحده في الطريق إلى الإسلام دون عون منّا، فقد وجد الآباء مثبطين والعلماء عنه مشغولين والحكام له مناوئين والموجهين به ساخرين))[٢]، وهو يقصد بهذا الصنف الثالث طبول الشر وأبواق إبليس الذين يسعون إلى هدم الفكر الإسلامي بمعول التخلف والتقليد والنفاق، لا الصنف الأول من العلماء العاملين بدليل أنه ذكر الصنف الأول بقوله: ((... إن هذا النوع البصير من العلماء الذين يجمعون بين البصيرة والتقوى هو الذي تحتاج إليه مجتمعاتنا اليوم، وهو القادر على أن يقوم بمهمته في ترشيد الصحوة الإسلامية))[٣] .

المبحث الثاني

العقبات الخارجية

أولاً: الحركات الاستشراقية

إن مفهوم الاستشراق الذي هو تعريب للكلمة الإنجليزية (Orientalism) مأخوذ من: الإتجاه إلى الشرق، وهي مشتقة من (شَرَقَ)، يقال: شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت[٤]، وهي تعني: مشرق الشمس وترمز إلى مجال الاهتمام بهذا الحيّز المكاني من الكون، وهو الشرق .

---

(١) إحياء علوم الدين: للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، خرّج أحاديثه: وهبي سليمان، تعليق: أسامة معمورة (ط١/ دار الفكر، دمشق–سورية ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م) ٣٦/١ .

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، ص١٩ .

(٣) الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، ص١٩ .

(٤) ينظر: المعجم الوسيط، ٤٨٢/١ .

أما إذا أضيف لها الألف والسين والتاء، والتي تعني: طلب الشرق، فإن معناها: طلب علوم الشرق وآدابه وأديانه بصورة شاملة وعلى هذا يكون المعنى الاصطلاحي العام للاستشراق: هو الاتجاه الفكري والذي يعنى بدراسة الإسلام والمسلمين ويشمل ذلك كل ما يصدر عن الغربيين من دراسات تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة والسنّة والشريعة والتاريخ وغيرها من مجالات الدراسات الأخرى .

ويلحق بالاستشراق ما تبثّه وسائل الإعلام الغربية من كتابات وبرامج تتناول الإسلام والمسلمين وقضاياهم .

ولو كان الأمر مقتصراً على ما في مضمون هذا التعريف لاستفاد المستشرقون من هذه الدراسات ولخدموا الإنسانية بها، إلا أنها –وللأسف– لم تكن كذلك بل كانت تهدف إلى دراسة الإسلام والشعوب الإسلامية لخدمة أغراض التبشير من جهة ولخدمة أغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى، ولإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية[١] .

ومن هذا المنطلق أصبح الاستشراق يشكّل عقبة عظيمة في طريق المشروع الحضاري ذلك لأنّها تسعى إلى هدم الأفكار الإسلامية عن طريق دراستها ومن ثم التشكيك بصحّتها، بل وتعدى الأمر إلى التشكيك بالوحي الإلهي، وبمن نزل عليه الوحي الإلهي وهو النبي ﷺ، فلم تعد هذه الحركة تتسم بالموضوعية –كما يدّعيه بعضهم– بل أظهرت أنيابها بغية افتراس الإسلام وأهله، بدافع الحقد على هذا الدين.

ومع هذا فلم تنجح هذه الحركة نجاحاً تامّاً، إذ أنها كانت سبباً في تأثر بعض المستشرقين بالإسلام واعتناقهم له، بل ومنهم من كرّس حياته للدفاع عنه .

---

(١) ينظر: أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني (ط٧/ دار القلم – دمشق ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م)، ص٥٠ . وينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، للأستاذ الدكتور محمد حمدي زقزوق (ط٢/ دار المنار – القاهرة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م) ص٢٤ .

ففي حوار مع (توفيان تيوفا نوفا)[١] قال: ((وقد لاحظتُ أن بعض المستشرقين -غير الموضوعيين- يطعنون في الإسلام ... وتركزت مطاعنهم في القرآن الكريم، فقالوا: إنه كلام بشري لا رباني، كما طعنوا في الآيات المكّية والآيات المدنيّة .. وأنكروا حقيقة الوحي وغير ذلك من الإفتراءات التي تعودوا على ترديدها في الساحة العلمية ... وأنا -وكل مستشرق موضوعي- يرفض هذا المنهج الإستشراقي الذي يشّوه صورة الاستشراق الموضوعي ويطعن في الإسلام بلا مبرر .. وأضاف: وأنا كمستشرق أدّت بي الدراسات الموضوعية الصحيحة إلى إعتناق الإسلام .. فأتصدى لهذه المنهجيّة الاستشراقية المعادية للإسلام والمسلمين ... وأدافع عن الدين الإسلامي الذي درسته واعتنقته وأنا واحد من المستشرقين الذين التزموا بالمنهج الموضوعي في دراستهم الإسلامية، ولا شك أن المنهج الاستشراقي غير الموضوعي هو وليد الحركة الاستعمارية والمنهج التنصيري الذي يستهدف تشويه الإسلام، وصورته وبثّ الأخطاء المتعمّدة حول الإسلام))[٢] .

إلا أن غالبية المفكرين الغربيين هاجموا وبشدة المشروع الحضاري الإسلامي، واعتبروه خطراً كبيراً يهدد سيادة الفكر الغربي، وانتصار الحضارة الغربية ونهاية التاريخ، ولم يبدأ هذا الأمر مع أحداث سبتمبر، أو مع نشوء فكرة صِدام الحضارات، أو نظرية نهاية التاريخ، وإنما سبق ذلك بقرون عديدة واستمر يغذّي الشخصيّة الغربيّة بمبررات العداء للعالم الإسلامي، ولشخصيّة النبي ﷺ[٣]، وذلك لأنهم عرفوا – منذ ظهور الإسلام وما حققه من إنجازات عظيمة – أنّ هذا الدين له قابلية السيطرة على العالم لما يحويه من شمولية، ولما تحمله مبادؤه من سهولة

(١) مستشرق بلغاري اعتنق الإسلام، تخرّج من جامعة بغداد قسم اللغة العربية ثم التحق بجامعة القاهرة لدراسة اللغة العربية وآدابها، نال الدكتوراه في معهد الاستشراق في روسيا ، عمل أستاذاً للدراسات الاسلامية في جامعة (صوفيا) ببلغاريا وأستاذاً بالمعهد الإسلامي هناك . ينظر: موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، علي بن نايف الشحود ، ٤٦٢/١٤ .

(٢) ينظر: موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ : علي بن نايف الشحود ، ١٨٥/٥ .

(٣) ينظر: لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لموقف الغرب من نبي الإسلام: باسم الخفاجي (ط١/ مطبعة مجلة البيان – السعودية ١٤٧٢هـ – ٢٠٠٦م) ٦٩/١ .

ويسر، ولذلك فإننا نميل إلى الرأي الذي يحدد نشأة الاستشراق بظهور الإسلام، وما وقع من جدل وحوار بين المسلمين وأهل الكتاب، بالإضافة إلى محاولات اليهود والنصارى للتشكيك في عقيدة المسلمين وفي معجزات النبي ﷺ، إلا أن ظهورها بشكل رسمي لم يعرف إلّا في الآونة الأخيرة، فيّعد القرنان التاسع عشر والعشرون عصري الإزدهار الحقيقي للحركة الاستشراقية، إذ ظهرت في هذين القرنين الجمعيات الاستشراقية التي نشطت في إصدار المجلات والمطبوعات الاستشراقية، وشهد القرن التاسع عشر بداية المؤتمرات الدولية للمستشرقين، إذ عُقِد أول مؤتمر دولي عام ١٨٧٣م[١] .

إن الذي فسح المجال لهذه الحركة للتوغّل في العالم الإسلامي في الوقت المعاصر هو جمود المسلمين على ما ورثوه عن أسلافهم من العلوم دون صياغتها بصيغة العصر المتجدد فضلاً عن عدم أخذهم بأسباب الحضارة في نفس الوقت الذي تقدّم فيه الغرب ذلك التقدّم الملحوظ في المجالات كلها، الأمر الذي جعل بعض المسلمين يستقبلون الدراسات الاستشراقية ظنّاً منهم أنّ هذه المناهج ستلحقهم بركب الحضارة ولم يعلموا أنهم وقعوا في مصيدة، إذ أن كثيراً منهم تجرأ على الطعن في أصول الدين الإسلامي !!!

يقول الدكتور طه حسين: ((هناك موضوع آخر يجب أن أنبّهكم إليه، وهو مسألة هذه الحروف العربية غير المفهومة التي تبتدأ بها بعض السور، مثل: الٓمٓ، الٓرٓ، طسٓ، كٓهيعٓصٓ، حمٓ، عٓسٓقٓ ...إلخ، فهذه كلمات ربما قصد منها التعمية أو التهويل أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف، أو هي رموز وضعت للتمييز بين المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب، فمثلا (كٓهيعٓصٓ) رمزاً

(١) ينظر: الغرب من الداخل، دراسات للظواهر الإجتماعية: مازن صلاح مطبقاني (ط٢/ الرياض – السعودية ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م) ص١٤ .

لمصحف ابن مسعود، و(حمٓ، عٓسٓقٓ)رمزاً لمصحف ابن عباس، و(طسٓ) رمزاً لمصحف ابن عمر، وهلمّ جرّاً، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً))[١] .

إننا إذ نكتب عن هذه العقبة الفكريّة، فإننا نتكلم عنها بشكل عام حيث أن طبيعة الدراسات الاستشراقية ومن لفّ لفّها هي التشكيك بأمور الدين وإبعاد أهله عنه .

والشواهد في ذلك كثيرة، جاء في كتاب (الإسلام وخرافة السيف): ((يقول مسؤول في وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٥٢م: ... إن العالم الإسلامي عملاق مقيّد، عملاق لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافاً تامّا، فهو حائر قلق كاره لانحطاطه وتخلّفه، وراغب رغبة -يخالطها الكسل والفوضى- في مستقبل أحسن وحرّية أفضل، فلنُعطِ هذا العالم الإسلامي ما يشاء ولنُقَوِّ في نفسه الرغبة في عدم الإنتاج الصناعي والفني حتى لا ينهض، فإذا عجزنا عن تحقيق هذا الهدف بإبقاء المسلم متخلّفاً وتحرّر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه، فقد بؤنا بإخفاق خطير، وأصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطراً داهِماً ينتهي به الغرب وتنتهي معه وظيفته الحضارية كقائد للعالم))[٢] .

ومع أن هذا الرأي لا يعبّر عن منهج جميع المستشرقين فهناك العديد من المستشرقين أنصفوا في دراستهم للإسلام، وأن أخطاءهم مبنيّة على جهل المستشرقين باللغة العربية، وعدم إدراكهم لأصول الدين الإسلامي، إلا أننا إذ نصنفها ضمن العقبات لأن الاستشراق بمفهومه العام أُسِسَ على الطعن في الدين الإسلامي وفي حضارته فلا اعتبار في الأفراد إذا كان بعضهم يوصَف بالموضوعية والإنصاف .

---

(١) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري: عبد المحسن بن زين ابن متعب المطيري (أطروحة دكتوراه، كليّة دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر) ص٤٩ .

(٢) ينظر: قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله: عبد الودود يوسف (دار السلام - القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٤م) ص٣٦ وما بعدها .

ثانياً: الحركات التنصيرية

التنصير في مفهومه اللّغوي: هو الدّعوة إلى اعتناق النصرانية أو إدخال غير النصارى في النصرانية[١] .

وهو بهذا المعنى يقترب من مدلول مصطلح (التبشير) عند النصارى –لأنهم لا يستخدمون مصطلح التنصير– فالتبشير عندهم: هو نشاط ديني يهدف إلى تنصير غير النصارى، يقول الدكتور (رويوا هيكو كاواوا): ((التبشير يعني: تحويل الناس عن الأمور الدنيوية إلى ملكوت السماوات ... إن هذا التحويل ضرورة مطلقة لأنه بدون إيقاظ الجوع الروحي فليس هناك أمل للفرد أو المجتمع أو الجنس أو الأمة))[٢] .

والذي يبدو أن هذا المعنى لم يعد كافياً للتعبير عن هذا المصطلح في الوقت الحاضر، فهو قد تطوّر حتّى أصبح يشمل: النّشاط الذي تمارسه أفراد وهيئات ومنظمات أجنبية خاصة في الأراضي الإسلامية بغية إدخالها في النصرانية، فإن لم يدخلوا فيها فليخرجوا من دينهم[٣]، فهو بهذا التوسّع يكون قد شمل استخدام الدعوة إلى النصرانية واستخدام غيرها من الأساليب، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن التنصير قد يكون بالدعوة إلى الدين النصراني وقد يكون فقط لإخراج المسلمين من دينهم، وهو ما صرّح به كبار المنصّرين، يقول القس زويمر[٤] في مؤتمر القدس – سنة١٩٣٥م، وهو يخاطب المبشرين بالنصرانية في العالم الإسلامي – ما نصّه: ((.. إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمّدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً (!!) وإنما مهمتكم

---

(١) التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته: علي بن إبراهيم الحمد النملة (ط٢/ ١٤١٩هـ) ، ص١٣ .

(٢) ينظر: التبشير في منطقة الخليج العربي: د. عبد المالك خلف التميمي (ط١/ دار الشباب للنشر والترجمة والتوزيع – الكويت ١٩٨٢م) ص١٦٧ .

(٣) ينظر: أصول التنصير في الخليج : كونوي زيقلر، ترجمة: مازن مطبقاني (نشر مكتبة ابن القيّم – المدينة المنوّرة) ص٧ .

(٤) لم اعثر على ترجمته بحدود اطلاعي .

أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الإستعماري في الممالك الإسلامية))[١] .

وقد تعدّدت أساليب المنصرين في الفتك بهذا الدين وكسر شوكته، ومن تلك الأساليب: التنصير عن طريق التعليم، وذلك إمّا بإنشاء المدارس والجامعات النصرانية صراحة، أو بفتح مدارس ذات صبغة تعليمية بحتة في الظاهر وكيدٍ نصراني في الباطن، مما جعل فئاتاً من المسلمين يلقون بأبنائهم في تلك المدارس رغبة في تعلّم لغة أجنبية أو موادٍ خاصّة أخرى، ولا تسل بعد ذلك عن حجم الفرصة التي يمنحها المسلمون للنصارى، إذ يهدونهم فلذّات أكبادهم في سنّ الطفولة والمراهقة حيث الفراغ العقلي والقابلية للتلقي أيّاً كان المُلقي !! وأيّاً كان المُلقَىٰ !!.

ومن وسائلهم كذلك التنصير عبر وسائل الإعلام: وذلك من خلال الإذاعات الموّجهة للعالم الإسلامي إضافة إلى طوفان البثّ المرئي عبر القنوات الفضائية في السنوات الأخيرة، فضلاً عن الصحف والمجلّات والنشرات الصادرة بأعداد هائلة[٢].

وهناك وسيلة أخرى استخدمها المنصرون وهي الحوار، فقد عملوا على فتح مناقشات علنيّة لا تمتّ بظاهرها إلى التبشير، لكنّها تهدف في الحقيقة إلى زعزعة إيمان المسلمين من خلال النّقاش وعرض الأقوال والردود، ثمّ النّفوذ من خلال الأخطاء والجمل المتشابهة في التأثير على ذوي النّفوس الضعيفة[٣] .

إنّ هذه الحركة تشكّل خطراً كبيراً على المسلمين، إذ أنها تبثّ سمومها عليهم من حيث لا يشعرون، فقد جاء عن الكاردينال موريللا – رئيس أمانة سر لجنة

---

(١) جذور البلاء: للأستاذ عبد الله التّل (ط٢/ المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م) ص٢٧٥ .

(٢) ينظر: التحذير من وسائل التنصير، تأليف : اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء . (ط١/) ص٦ .

(٣) ينظر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، للدكتور مصطفى خالدي – والدكتور عمر فرّوخ (المكتبة العصرية، بيروت – لبنان) ص٢٥٧ . وينظر: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر: لأحمد عبد الوهاب (مكتبة وهبة) ص١٧٣ .

الحوار مع غير المسيحيين – في وثيقته التي أصدرها عام ١٩٦٩م قوله: ((... أخطر ما يمكن أن يوقف الحوار: أن يكتشف من نحاوره نيّتنا في تنصيره، وإذا ما قد تمّ استبعاد هذا الموقف بين الكاثوليكي وغير الكاثوليكي فإنه لم يستبعد بعد بين المسيحي والمسلم، وإذا ما تشكك من نحاوره في هذه النّية علينا بوقف الحوار فوراً، وهذا التوقّف المؤقت لا يعفينا من تأكيد مواقفنا بوضوح ...))[١] .

ولقد صُرفت أموال ضخمة في إنجاح هذه الحركة – التي تهدف إلى زعزعة المسلمين ومن ثمّ القضاء عليهم، فقد كانت ميزانية التنصير في العالم سنة ١٩٩٠م حوالي (مائة وأربعة وستين مليار دولار أمريكي) سنويّاً، ثم قفزت الميزانيّة عام ١٩٩٢م إلى (مائة وواحد وثمانين مليار دولار أمريكي)، وقد أفاد بهذا أحد المحاضرين في أحد الدروس العامّة التي تحدّث فيها عن التنصير والفارق الزمني بين الرقمين هو سنتان، أم الفارق الرقمي بينهما فهو (سبعة عشر مليار دولار)، وهو الزّيادة في غضون سنتين فقط، ومثل هذا التفاوت في الأرقام ينطبق على أعداد المنصّرين والمنصّرات، والمتنصّرين والمتنصّرات، والمعاهد التنصيرية والجمعيّات القديمة والحديثة واللقاءات والمؤتمرات وغيرها من وسائل تنصيرية[٢] .

وهنا تكمن خطورة هذه العقبة وخطورة نتائجها على مشروعنا الحضاري، والتي من خلالها تتمّ عرقلة مسيرته الخالدة .

لقد ركّز الكثير من الدعاة على الأماكن التي تتسلل منها هذه العقبة، يقول الشيخ محمد الغزالي: ((.. إنّ قوى التنصير تتسلل من خلال الثغور الكثيرة في أنحاء مجتمعنا ومن خور الضعف الظاهر في بنائنا الأخلاقي ... ولست أنكر عجز الحكومات المختلفة في مكافحة هذا البلاء، غير أنّي أتفرّس في هذا العجز فأجده – مرة أخرى – وليد تربية سيئة وتنشئة معتلّة ... ومن الإنصاف أن نقول: إنّ تحامل قادة التنصير علينا لم يأتِ من فراغ، فإن سيرة بعض المسلمين وفتاوى بعض

(١) التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين: عبد الرحمن بن عبد الله الصالح (ط١/ دار الكتاب والسنّة ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م) ص٧٦ .

(٢) ينظر: التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته، ص٦ .

المتفيقهين تجرّ على الإسلام صنوف البلاء ... من قال: أن المرأة لا تتعلم؟ من قال: أن المرأة لا ترى أحداً ولا أحد يراها؟

إن الذين أهانوا النساء وحجّروا عليهم وظنّوا بهنّ الظّنون، ينطلقون من مبادئ شاعت في الجاهليّة الأولى، وكذلك هي تعاليم آباء الكنيسة الأقدمين انتقلت إلى الأمة الإسلامية، لأن هذه الأمة قلّدت اليهود والنصارى برغم تحذير النبي ﷺ من هذا التقليد، وتشاؤمه من هذا الإتّباع السيء ...))[١] .

ثالثاً: العلمانيّة والعولمة

يعود أصل كلمة العلمانيّة (Laicism) إلى اللغة اللاتينية: وهي مأخوذة من كلمة (Secularism) وتعني: الدنيا أو الدنيوية أو اللّادينيّة[٢] .

ولم توجد هذه الكلمة في معاجم اللغة العربية القديمة، إلا أنها وردت في بعض المعاجم الحديثة بمعانٍ كلها متقاربة تدل على معنىً واحد تقريباً وهو: خلاف الدّيني، جاء في (المعجم الوسيط): ((العلماني: نسبة إلى العلم بمعنى: العالم، وهو خلاف الديني الكهنوتي))[٣]، والكهنوت: هي خدمة أسرار الكنيسة ودرجاتها ثلاث: الشّمّاس والقسّيس والأسقُف[٤] .

ويعدّ هذا المصطلح محل اختلاف بين الباحثين في مفهومه الإصطلاحي، وإن كان الشّائع بين الناس بأنها تعني: فصل الدين عن الدولة، إذ أن هناك الكثير ممن لا يوافق إطلاق هذا المفهوم على مصطلح العلمانيّة، جاء في كتاب (العلمانيّة نشأتها وتطوّرها وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة): ((والتعبير الشائع في الكتب الإسلامية المعاصرة هو: فصل الدين عن الدولة، وهو في الحقيقة لا يعطي المدلول الكامل للعلمانيّة الذي ينطبق على الأفراد وعلى السلوك الذي قد لا يكون له صلة

---

(١) صيحة تحذير من دعاة التنصير: محمد الغزالي (ط١/ دار نهضة مصر) ١٨-١٣١ .

٢ – ينظر: عجز العقل العلماني: عيد الدويهيس (ط١/الكويت ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م) ص٢٣ .

٣ – ينظر: المعجم الوسيط: ٦٣٤/٢ .

٤ – ينظر: قاموس الأسقف جرمانوس فرحات (طبع سنة ١٨٤٩م – مدينة مرسيلية – فرنسا) .

بالدولة))[١] .إن أدق ما قيل في مفهوم العلمانية هو ما ذكره (إكسفورد) من أن العلمانية مفهوم يرى ضرورة أن تقوم الأخلاق والتعليم على أساس غير ديني[٢] .

وعلى هذا فالعلمانية هي ((حركة تاريخية حملت الأفراد من داخل المجتمع الغربي من المجتمع (الثيوقراطي) الديني إلى المدنيّة الأرضية، وفي هذا السياق لم يعد الإنسان مجبراً على تنظيم أفكاره وأعماله وفق معايير فرضت على أنها إرادات إلهية، فلا يمكن القول: بأنها الأسلوب العلمي أو العالمية أو العلمية أو الحداثة أو العقلانية، لأن هذا خلط للأوراق: بل هي تعني أننا كبشر قادرين على بناء دولتنا وحياتنا الشخصيّة وأنظمتنا السياسيّة والاجتماعية والاقتصادية وتحديد مواقفنا مع الأحداث السياسيّة اعتمادا على عقولنا المجرّدة، ولسنا بحاجة إلى رسالات سماويّة، وأنبياء حتى نعرف الحق من الباطل في هذه الأمور))[٣] .

وهنا تكمن خطورة هذا المصطلح، إذ أن الهدف الأساسي منه هو إلغاء دور الدين في حياة النّاس ليحلّ محلّه العقل البشري الذي هو عرضة للتفسّخ والإباحية، وإلى الظلم باسم الديمقراطية وإلى غير ذلك من إفرازات العلمانية، لأنها من وضع البشر وهم يخضعون للأهواء والشهوات، وتتغلب عليهم العواطف البشريّة التي تحيد بهم عن الحق والصواب .

ومن المعلوم أن العلمانية أوّل ما ظهرت في أوروبا عندما نشب الصراع بين رجال الكنيسة ورجال العلم الذين ابتكروا قضايا علمية تعارض ما يدعو إليه الدين المسيحي المحرّف، ككرويّة الأرض، وغيرها من الاكتشافات، مما اضطر الكنيسة إلى إعلان حرب شعواء ضد كل من ينادي بالعلم، واستمرّت هذه الحرب قروناً عديدة سمّيت فيما بعد بالعصور المظلمة التي شُلّت حركة التقدّم فيها، وذلك منذ

(١) العلمانية نشأتها وتطورها وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة: سفر الحوالي (دار مكّة للطباعة والنشر، جامعة أم القرى – السعودية ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م) ص٢٣ .

(٢) العلمانية في ميزان العقل: عيد الدويهيس (الكويت ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م) ص٧ .

(٣) المصدر نفسه، ص٧ .

أواسط القرن السادس عشر الميلادي، ولم تتوقّف إلّا عند بداية النهضة الأوروبيّة الحديثة، والانقلاب على الكنيسة[١] .

فالعلمانيّة بدأت كثورةٍ ضد الكنيسة لكنّها الآن تشكّل مفهوماً آخر أوسع بكثير مما كانت عليه، إذ أنّها أصبحت تمثّل عقبة خطيرة أمام المشروع الحضاري الإسلامي' فقد فرضت على الإسلام أن يحمل نتائج هذا التاريخ الأسود، وحكمت عليه بالعزل عن القيادة للأمة، والطرد من موقع التشريع والتوجيه والتأثير وأن يحبس في خبايا الضمائر، فإن خرج منها فليبقَ بين جدران المساجد والزوايا على أن يظل في المسجد أيضاً قصير اللّسان خفيض الصوت حافظاً للمثل القائل: من سعادة جدّك وقوفك عند حدّك، فهو مسجد (موجّه) موضوع تحت مجهر المراقبة ليس له حريّة الدعوة، ولا الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر[٢] .

إن المجتمع الإسلامي لا يؤمن بالعلمانيّة قطعاً، إلّا أنها نفذت إليه بسبب الظروف التي مرّ بها في الآونة الأخيرة، والتي كانت من نتائج الغزو الاستعماري، فضلاً عمّا يشاهده المسلمون من التطوّر المادّي في الحضارة الغربيّة، إذ أنّ كثيراً من المسلمين انحرفوا إلى الاتجاه العلمانيّ ظنّاً منهم أن هذا الغزو الذي جرفهم، وهذا التأخر الذي حلّ بهم كان سببه الوحيد هو الخضوع إلى توجيهات الدين الإسلامي !!.

يقول الدكتور طه حسين: ((إن الدين الإسلامي يجب أن يُعلَم فقط كجزء من التّاريخ القومي، لا كدين إلهي منزّل بين الشرائع للبشر، فالقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام، ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام في صميم الحياة السياسية أو أن يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة، فالأمة تتجدد

(١) ينظر: ماذا قدّم المسلمون للعالم، ص١٦٩ .

(٢) ينظر: الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، ص٨٨ .

بمعزل عن الدين))[١]، فهذا هو أساس العلمانية الذي ينطلق من مذهب عزل الدين عن السياسة، وينتهي بعزل الدين عن الحياة .

لقد شكّلت العلمانية شرّاً مستطيراً هدّاماً في العالم الإسلامي وفي العالم أجمع، فقد أصبحت قاعدة في الحكم فصارت الدولة لا دينية، ودخلت التعليم الذي هو أخطر مؤسسة وصل إليها الفكر البشري لتشكيل الفرد ومن ورائه الجماعة، فلا دينية التعليم والتربية – التي فرضت بالقوة في البداية على بلاد الإسلام– هي التي سمّمت العقول والفكر، وخلقت جيلاً ضالّاً فأصبحت أداة هدم من الداخل، ومعاول تحطيم بما سُلِّطَ وبُثّ من فكرٍ سامٍّ، فكرٍ مبتورٍ عن تاريخ الأمة الإسلامية وتراثها وحضارتها[٢] .

أمّا مصطلح العولمة فقد جاء بمعنى جعل الشيء على مستوى عالمي، أي أنها ((الحالة التي تتم فيها عملية تغيير الأنماط والنظم الاقتصادّية والثقافية والاجتماعية ومجموعة القيم والعادات السائدة وإزالة الفوارق الدينية والقومية والوطنية في إطار تدويل النظام الرأسمالي الحديث وفق الرؤية الأمريكية المهيمنة، والتي تزعم أنها سيّدة الكون وحامية للنظام العالمي الجديد))[٣] .

إن الدين الإسلامي يرفض نظام العولمة لأنه يتعارض مع مبادئه، فمبادئ الإسلام قائمة على العالمية التي تعني عالمية الهدف والغاية والوسيلة وتحترم خصوصية وتفرّد الشعوب والثقافات المحلية، أم العولمة فهي ترتكز على عملية نفي واستبعاد لثقافات الأمم والشعوب ومحاولة فرض ثقافة واحدة لدول تمتلك القوة المادية وتهدف عبر العولمة لتحقيق مكاسب السوق لا منافع البشر، إذن هو مشروع ثقافي غربي وكما ذكر الدكتور محمد حسن رسمي حينما وصف العولمة بأنها

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر: طه حسين (مطبعة الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة – مصر) ص٢٥-٢٦ .

(٢) ينظر: المسلمون وتحدّيات الفكر المعاصر: القاسم البيهقي المختار، (بحث في مجلة مجمع الفقه الإسلامي، مكة المكرمة – السعودية، عدد١٣) ٢١٦٦/٧ .

(٣) العولمة: صالح الرقب، ص٧ .

طوفان كاسح لن يقف في طريقها أحد وعليه أن يتفهم فكرها وفلسفتها فهو نظام داعم للأقوياء طاحن للضعفاء[١] .

فالعولمة الثقافية تقوم على تسييد الثقافة الرأسمالية لتصبح الثقافة العليا، وهذا ما أكّده أحد الدارسين بقوله: ((ليست العولمة انتقالاً من ظاهرة الثقافة الوطنية والقومية إلى ثقافة عليا جديدة هي الثقافة العالمية، بل إنها فعل اغتصاب ثقافي وعدواني رمزي على سائر الثقافات خاصة ثقافتنا العربية الإسلامية))[٢] .

إذاً العلمانيّة والعولمة مصطلحان يراد بهما الهدم والتخريب في المشروع الحضاري الإسلامي، ولا بدّ من إيجاد حلول وسبل لمواجهة هذه العقبات الفكرية الخارجية والداخلية للوقوف مرة ثانية على الأسس القويمة في الفكر العربي الإسلامي، وهي المصدر الرئيس والإرث الذي تركه لنا نبي الأمة وهاديها سيدنا محمد ﷺ .

وسنعرض في المبحث القادم أهم الحلول والسبل لمواجهة هذه العقبات .

المبحث الثالث

الحلول والسبل لمواجهة العقبات

مدخل

بعد معرفة أماكن الخلل التي تعرقل سير مشروعنا الحضاري لا بد لنا من إيجاد الحلول والمخارج التي بها يستطيع مشروعنا الحضاري النهوض لاجتياز تلك العقبات، ومن ثمّ التقدّم على الحضارات الزائفة .

إن العقبات التي ذكرناها آنفاً تشكّل مرضاً خطيراً في جسم حضارتنا الإسلامية ولا سيما الجانب الفكري منها لأنه يلعب دوراً مهماً في تقدّم المشروع الحضاري الإسلامي .

---

(١) ينظر: مع العولمة (صحيفة الإهرام) ص١٦ .

(٢) الثقافة العربية في عصر العولمة: صحيفة الاهرام (٢٢-٢-٢٠٠٢م) .

وبما أننا قد تناولنا العقبات الفكريّة فقط، فيجب علينا أن نذكر حلولاً فكريّة أيضاً، فضلاً عن أنها يجب أن تخرج من روح الدين الإسلامي لأن الموضوع مختص بمشروع حضاري إسلامي، ((إن منهجنا التغييري الإسلامي لا بد أن يتبنى الحلول الجذرية التي تكون في خدمة مصالح أوسع الجماهير الإسلامية، وإنقاذها من وجوه الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والاستلاب الاقتصادي، حتى تندفع بإيمان واقتناع وجراءة إلى صنع تاريخنا من جديد، وبناء حضارتنا الإسلامية الإنسانية العلمية))[١] .

لقد بذل المفكّرون الإسلاميّون جهوداً عظيمة في إيجاد حلول لمشروعنا الحضاري، إلّا أنها – وللأسف – كانت فرديّة إلى حدٍّ كبير لم تتسم بطابع الجماعية، إذ أن هذه الأمة لم تهتمّ في إيجاد الحلول للخروج من مآزقها، وأعظم الأسباب التي جعلتها تهمل هذا الجانب هو غياب روح الجماعة في هذه الأمة، إذ أصبح الفرد المسلم لا يتلذّذ بروح الجماعة وإنما كل الذي عليه هو أن يسعى لتخليص نفسه .

إن هناك نقطة أساسية للنهوض بمشروعنا الحضاري وهي: إنّ على المسلمين أن يسعوا لإيجاد الحلول التي تزيل عنهم الأزمات، وعليهم أيضاً أن يدركوا أن الحلول الفكرية لا تكفي وحدها إذا لم تتبع بالهمّة والنشاط والعزيمة والإرادة .

وفضلاً عن هذا، إن الحلول لا يمكن أن تنطلق من المنهج التوفيقي الذي يوفّق بين مبادئ الإسلام وبين مبادئ الحضارة الحديثة، لأنها تنطلق من اتجاهين متضادّين، لكل منهما أرضيّته الخاصة ونمطه الحضاري المتميّز، فلا يجوز قطع جزء معيّن من مذهب آخر أنتجته حضارة مختلفة ليخرجا كلّاً له جزءان متباينان لأن الكل الجديد عند ذلك يفقد تسلسله المنطقي، ووحدته الداخلية واتّزانه الحضاري[٢] .

---

(١) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص٨٣ .

(٢) ينظر: المصدر نفسه ص ٢٨ .

أولاً: اعتماد منهج الفكر الإسلامي الشامل

لقد غاب كثير من المفاهيم الصحيحة عن مجتمعنا الإسلامي، ومن الطبيعي أن يكون البديل هو انتشار الخرافات والبدع والنظريات الفاسدة التي لا تقوم على أصل إسلامي بحت .

إن هناك مقولة مشهورة وردت عن الإمام مالك –رحمه الله– تنص على أنه: ((لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها))[١]، ومن له أدنى نظر في تاريخنا الإسلامي يجد أن من أهم الأمور التي صلح عليها أول هذه الأمة هو (الإبداع الفكري) المتأطر بإطار الإسلام، والذي أحدث ثورة في العلم والمعرفة إذ قد أثرت الإبداعات الفكرية عطاءً كبيراً لا يزال المسلمون يرشفون من معينه .

وبناءً على هذا فيجب على المسلمين وخاصة من ينتسبون للعلم أن لا تنطلق مناهجهم من دوافعهم الشخصيّة وانتماءاتهم المذهبيّة، لأنها حينئذٍ ستشكل خطراً جسيماً على هذه الأمة وعائقاً كبيراً أمام مشروعها الحضاري ليس ببعيد أن تؤتى الأمة من قِبَلِهِ .

إن النظر العقلي غالباً ما يكون عرضة للزلل والخطأ، فضلاً عن أن الإسلام أشمل من مجرد النظر العقلي، ولهذا ذاب المعتزلة والفلاسفة بسبب تركهم لنصوص الشرع في استنباط الحلول بغية الخروج من القضايا الشائكة .

فعلى سبيل المثال ما ورد من مناظرة الأشعري لشيخه أبي علي الجبّائي[٢]، حين سأله: عن ثلاثة أخوة، عاش أحدهم في الطاعة، وأحدهم في المعصية، ومات أحدهم صغيراً؟ فقال الجبائي: يثاب الأول بالجنّة، ويعاقب الثاني بالنار، والثالث لا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٩٦/٢٧ .

(٢) أبو علي الجبّائي: محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن جمران بن أبان، مولى عثمان بن عفّان ﷺ بالمعروف بالجُبّائي بالضم والتشديد نسبة إلى جبى بالقصر قرية بالبصرة، أحد أئمة المعتزلة كان إماما في علم الكلام، وأخذ هذا العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحّام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة في عصره، وله في مذهب الاعتزال مقالات مشهورة مات سنة ٣٠٣هـ . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ٢٦٧/٤ .

يثاب ولا يعاقب! قال الأشعري: فإن قال الثالث: يا رب، لو عمّرتني فأصلح فأدخل الجنّة؟ قال الجبّائي: يقول الرب: كنتُ أعلم أنّك لو عمّرتَ لفسقتَ وأفسدتَ فدخلت النار. قال الأشعري: فيقول الثاني: يا رب لِمَ لمْ تُمتني صغيراً لئلا أذنب، فلا أدخل النار كما أمتَّ أخي؟ فبهت[١] .

والسبب في ذلك أنه اعتمد على النظر العقلي، فلم يستطع إتمام المناظرة، إذ العقل له خطوط حمراء لا يمكن أن يتعدّاها فضلاً عن أنّ له هفوات، فهو ليس بمعصوم .

وكذلك الإعتماد على الجانب الروحي إذ لا يمكن أن يكون هو الحل – وخاصة في الفترات التي حلّت بالمسلمين الهزائم والنكبات – لأنه كان ناتجا عن طبيعة المرحلة وتعبيرا عن الهزيمة الداخلية، والصدمة النفسية التي أصابت المسلمين ولم يكن واجبا أن يستمر بزخمه وقوته ... فضلاً عن أنه دخل فيه انحراف خطير نتيجة لدخول الفلسفة الإشراقية والإتحاديّة والحلولية الغريبة عن النزعة الروحية الخالصة ولقد وقعت هذه المـــأساة فعلا، فأصطبغت حياة المسلمين في القرون الأخيرة بنظرة روحية تواكلية سلبية في الحياة قتلت في المجتمع روح الحركة والإقدام والمبادرة التي تشكل جوهر الإسلام في عملية التغيير وأداء حق الخلافة على الأرض .

إن الحلول الدقيقة التي تكفل المنهج الصحيح لا بد أن تكون نابعة من الفكر الإسلامي فهو الكفيل بأن يذيب فيه الجيوب الإسلامية كافة والتي كان كل جيب فيها ردّاً مرحليّاً على انحراف معيّن في المجتمع الإسلامي في مراحل معروفة .

ومصداق ذلك ما نرى اليوم من بداية اقتناع الجميع بأنّ تبنّى المنهج الإسلامي التغييري الشامل، وأنظمته المتكاملة غدت من الضرورات الملحّة، أي أن جميع المخلصين يدركون اليوم أنه لم يعد يكفي الاعتماد على الجانب العقيدي وحده أو التشريعي وحده أو السلوكي وحده، لمجابهة الأزمات الحضارية والانتكاسات الفردية والاجتماعية التي يمر بها المجتمع الإسلامي، بل لا بد أن تمشي الخطوط الثلاثة

---

(١) ينظر: المواقف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الأيجي، تحقيق: د. عبد الرحمن العميرة (ط١/دار الجيل – بيروت ١٩٩٧م) ٢٨٤/٣ .

متكاملة متوازنة متعانقة لمعالجة السقوط العقائدي والاجتماعي والأخلاقي فيه تمهيداً لإحداث التغيير المنتظر[١] .

إذن فلا بد للمسلمين اليوم من الاعتناء بالدراسات العلمية وإتّباعهم المنهج العقلي والعلمي والتجريبي والربط بين الظواهر ومعالجة روح الخرافة والعقلية الأسطورية، والمواقف اللاعقلانية واللاسببية التي فتكت بعقلية المجتمع الإسلامي في القرون الأخيرة[٢] .

يقول الشيخ محمد عبده: ((إن الإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفكري، فلا يدهشك بخارق للعادة ولا يغشى بقارعة سماوية ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلٰهية ...))[٣] .

إن من أفضل السبل لبلورة مشروعنا الحضاري هو تبنّي ما يسمى بـــ (الأفكار المحورية) التي تنتظم مجموعة من الأفكار الجزئية ليصبح الإيمان بالفكرة المحورية سبيلاً إلى الإيمان بتلك المجموعة، وهذه الأفكار المحورية يجب أن تتصف بالشمول والتكامل كيما تكون صالحة بمجموعها لتمثيل المشروع الحضاري الذي يمثّل بدوره الإسلام عقيدة وشريعة وفلسفة إزاء الكون والإنسان والحياة .

((إن استعادة المنهج التغييري الإسلامي لأصالته التجريبية وروحه العقلانية، هي الطريق الصحيح للقضاء على ازدواجية التربية والتعليم في حياتنا الحاضرة عندما عانقت عوامل النكوص والجمود والانغلاق والتأخر مخططات المستعمرين التي فصلت بين التعليم الإسلامي والتعليم الإنساني والعلمي، والذي أدّى إلى أن تفقد المذهبيّة الإسلامية قيادتها لحركة النمو الحضاري الجديد في العالم الإسلامي والذي ضيّق على الإسلام فحصره في إطار المؤسسات الثقافية الخالية من روح الحركة

---

(١) ينظر: المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص٧٩-٨٠ .

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٧٤ .

(٣) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: دراسة وتحقيق: محمد عمارة (ط القاهرة – مصر ١٩٩٣م) ٢/٣٤٣-٣٤٤ .

الرابطة بين القديم والجديد، وفتح المجال أمام التعليم العلماني الذي تجرّد من الإسلام ومشى في خط التمرّد الذي رسمه له (دنلوب) في بلاد المسلمين))[١] .

إن العلوم المتجددة وبخاصة العلوم التجريبية والعقلية وكذا الثقافة الحديثة بجميع فروعها ينبغي أن تكون مقصداً للمجتمعات الإسلامية، وكذلك إتقان اللغات الأجنبية للإطلاع على أحوال الأمم الأخرى في فكرها ومنهجها، وما تحققه من تقدّم في مجال العلوم الدقيقة[٢] .

ثانيا: تجدّد روح أحكام الدين الإسلامي

من المعلوم لدى أهل العلم أن الأحكام من حيث قبولها للاجتهاد وعدم قبولها له تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: لا يقبل الاجتهاد، فهو لا يقبل التغيير ولا التجدد وإنما هو باقٍ كما ورد من مبدأ تشريعه وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذه الأحكام مبنيّة على قطعية النص – قرآن أو سنة – ثبوتاً ودلالة[٣]، وذلك كتحديد أنصبة الورثة وصفة الصلاة ومواقيتها، وما إلى ذلك، وحسبنا في هذا تنفيذ ما تطلبه منا نصوصه لا غير، إذ أن إعمال الاجتهاد محال بطبيعة الحال .

والقسم الآخر: هو ما يقبل الاجتهاد وبالتالي هو يقبل التجدد لما له من مرونة وسعة، وهذا القسم إنما وجد لأسباب عديدة:

أهمها: لمراعاة مصالح الناس في جميع الأزمنة والأمكنة فضلاً عن أنه يساعد الأحكام الشرعية على الاستمرارية والبقاء .

---

(١) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص٧٥-٧٦ .

(٢) ينظر: لماذا يمزّق القرآن الكريم؟ : علي بن نايف الشحود (١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م / كتاب ألكتروني، عنوان الموقع: http://www.ojgii.net/upvb/uploads/91d17428ff.gif) ١٤ .

(٣) ينظر: أصول الحكام وطرق الاستنباط في التشريع الإسلامي : حمد عبيد الكبيسي (ط٣/ مطابع البيان التجارية – دبي ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م) ص٤٤ وما بعدها .

وهناك أمر آخر شرّع الاجتهاد من أجله، وهو تخليص العقول من الجمود والتحجّر الفكري .

وبناءً على ما سبق فإن باب الاجتهاد واسع، إذ منه تكتسب حضارتنا الإسلامية ديمومتها وبه تستطيع الأمة الإسلامية الصمود أمام كل عائق يعرقل مسيرتها .

ألا إن هذه الثروة العظيمة – وللأسف– أصبحت شحيحة في حضارتنا الإسلامية منذ عدّة قرون، فأصبح الاجتهاد أثراً بعد عين واكتفى أغلب أهل العلم بنقل الأحكام من أمات[١] الكتب القديمة .

إن من أهم ما يهدف إليه الفكر الإسلامي هو التجدد وعدم الانغلاق على المنقول لأنه يعيق تقدّم المشروع الحضاري وقد كان السلف – رحمهم الله– يدركون أهميته جيداً ولهذا أنتجوا لنا تلك الثروة العلمية الهائلة .

فأبو حنيفة – مثلاً – كان يدرك هذه المعاني جيداً وإلا فكيف فتح باب الاجتهاد على مصراعيه وأثرى الفكر الإسلامي بآرائه العظيمة وبمدرسته التي لم يتحقق الانتشار لغيرها كما تحقق لها .

وبناءً على هذا فإنني أعتقد جازماً بأن أبا حنيفة لو كان موجوداً في زماننا لما أخَذ بكثير من آرائه التي قالها – على اعتبار أنها لا تصلح لهذا الزمن وهذه الظروف – والدليل على هذا ما قاله هو لتلميذه أبي يوسف: ((ويحك يا يعقوب لا تكتب عنّي كل ما أقول فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً، ونقول القول غداً ونرجع عنه بعد غد))[٢] .

فهذا التجديد الذي ينشده هذا الإمام العظيم قد غاب عنّا فأصبحنا لا نأخذ إلا بالآراء القديمة التي غالباً ما تتعارض مع الواقع، ومما زاد الطين بلّة أننا نعد كل من يجدّ جديداً متمرداً على أولئك العظام !! وبهذا نكون قد صيّرنا تلك الأفكار قرآناً لا يمكن تحريفه ووقعنا في مصيدة التقليد التي حذّرنا أولئك العلماء أنفسهم منها .

---

(١) أمات: جمع أم، لغير العاقل، بخلاف أمّهات فإنها تطلق على العاقل . ينظر: القاموس المحيط: لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي / ١٣٩١ .

(٢) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، مالك والشافعي وأبو حنيفة، ص١٤٥ .

فالواجب علينا أن نبث روح التجديد في فكرنا الإسلامي شريطة أن تكون ضمن الضوابط والمعايير التي قررها كبار علمائنا لكي نجمع بين أصالة ماضينا وتجدد حاضرنا، وما أجمل ما قاله الدكتور يوسف القرضاوي: ((... وهنا يكمن الخطر على الجماعة والدولة والإنسانية إذا لم يرزق المجتمع بفقه نيّر يقدّر الحاجات البشريّة والمصالح الاجتماعية قدرها، فحين ندعو إلى استئناف حياة إسلامية حقيقية يقوم عليها مجتمع إسلامي متكامل تقوده دولة إسلامية معاصرة، تتعامل مع عالم متشابك العلاقات متعدد المذاهب، تقاربت فيه المسافات والحواجز حتّى أصبح كأنه بلد واحد، يجب علينا أن ندرك أن في المجتمع القوي والضعيف، والرجل والمرأة، والشيخ والطفل، وفيه الظالم لنفسه بجوار المقتصد والسابق بالخيرات، فيلزمنا أن نراعي هؤلاء في التوجيه والإفتاء والتشريع))[١] .

فينبغي على أهل العلم أن يأخذوا هذا الموضوع بعين الجد، ويجددوا كثيراً من الأحكام التي تحتاج إلى التجديد، وينزلوا بأفكارهم وعلمهم للجمهور الإسلامي العريض، لأنهم بهذا يكونون قد رفدوا الحضارة الإسلامية بعامل من عوامل النهوض[٢] .

وقد يسأل سائل ويقول: ومتى أغلق باب الاجتهاد؟ وهذا السائل من حقه أن يقول هذا الكلام بناءً على ظرفه الذي يعيش فيه، إذ قد يكون في أجواء فيها بعض العلماء المجتهدين، وهو معذور في هذا لأن الأرض لا تخلو من المجدّدين، لكنني أقولها بصراحة: لو كان باب الاجتهاد مفتوحاً بكل معاني التقدّم والتجدّد لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه !!! .

((إن الاجتهاد في الإسلام أقوى دليل على أن ديننا الحنيف هو الدين الشامل الخالد الوحيد الذي يساير ركب الحضارة الإنسانية عبر العصور والأجيال، ويرّحب بكل التغييرات الطارئة والمشاكل الناجمة من تجدد الظروف والمصالح على

(١) الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف: ص١٢٣-١٢٤ .

(٢) ينظر: السيرة الزنكية، موسوعة الحروب الصليبية: د. علي محمد محمد الصلّابي: ٣٣٣/٢.

اختلاف المجتمعات الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، ويعرض لها حلولاً مناسبة في ضوء الأحكام الكليّة، والأصول الثابتة من الكتاب والسنّة))[١] .

((لقد عمد المفكرون الإسلاميون في عصرنا هذا إلى توسيع دائرة الفقه الإسلامي وذلك مسايرة للواقع الذي نحن فيه بغية الخروج من فكر المحنة، فكر الأزمة والتوتر – ومن الفكر الظاهري الذي يقف عند حرفية النصوص – ومن الفكر الخارجي الذي يجمع إلى الإخلاص والشجاعة؛ العنف وضيق الأفق – ومن الفكر التقليدي أسير المذهبية الضيّقة – إلى فكر العافية وفقه السنن وفقه المقاصد وفقه الموازنات وفقه الأولويات .. فكر تحرير الأرض الإسلامية .. والانتصار لكل قضايا تحرر مطلق الإنسان المستضعف .. فكر الانتصارات للأقلّيات المسلمة – المكوّنة لربع الأمة الإسلامية – فكر الحرّية السياسية والديمقراطية الملتزمة بالأصول القطعية للإسلام، فكر الحوار مع الآخرين بمن فيهم عقلاء العلمانيين وعقلاء الحكّام وعقلاء الغرب والمستشرقين، فكر الحوار الديني الذي يكتشف الأرض المشتركة بين المتدينين ضد المادّية والإلحاد))[٢] .

ومن جانب آخر فقد حثّ الدكتور يوسف القرضاوي على المزج بين الفقه والدعوة لكي يحصل التجدد المنشود، فهو يرى (أن عصرنا أحوج ما يكون إلى المزج بين الفقه والدعوة بحيث يكون الداعية فقيها والفقيه داعية .. فلن يجدد الدين في عقول الأمة وضمائرها إلا الداعية الذي يحمل عقل الفقيه والفقيه الذي يحمل روح الداعية ..)[٣] .

---

(١) إرشاد النقّاد إلى تيسير الاجتهاد : محمد بن إسماعيل الصنعاني ت: ١١٨٢هـ، تحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد (دار السلفية – الكويت ١٤٠٥هـ) ص١١ .

(٢) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة: د. يوسف القرضاوي، (طبعة بيروت سنة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م) ١٧٨–١٨٨ .

(٣) فتاوى معاصرة: د. يوسف القرضاوي، (طبعة الكويت سنة ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م)

ثالثاً: التخلّص من مساوئ الحضارة المادّية

إن المذهب المادّي الذي قامت عليه الحضارة الحديثة والمتمثلة بنظامي (العلمانية والعولمة) بعيد كل البعد عن مبادئ حضارتنا وقيمنا، فيقول الأستاذ سيد قطب: ((كيف يتسنّى لنا أن نكوّن عقيدة إسلامية بثقافة ووسائل تربية وطرق تفكير هي في صميمها غربية وفي صميمها معادية للفكرة الإسلامية))[١]، تحارب الإسلام لأنها قائمة على أساس ماديّ وتحاربه فكريّاً وعقائدياً وتحاول هزيمة الفكرة الإسلامية ولكننا كمسلمين نحاول أن نتخلص من مساوئ هذه الحضارة الغربية وذلك يكون بما يأتي:

إما تركها بالكامل نافعها وضارّها ..

أو أخذها كلّها نافعها وضارّها ..

أو أخذ ضارّها وترك نافعها ..

أو أخذ نافعها وترك ضارّها ..

والاختيار الصحيح هو أخذ نافعها وترك ضارّها فهو أنسب طريق يجب على المسلمين الأخذ به وبأسبابه، وقد انتفع النبي ﷺ بدلالة ابن الأريقط الدؤلي له في سفر الهجرة على الطريق مع أنه كافر[٢] .

ومن خلال هذا الدليل يتضح لنا أن الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربية هو: ((أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادّية))[٣] .

إذ أن هذا الانتفاع لم يكن في أمر من الأمور المهمة في الدين الإسلامي وخصوصيته، ولو كان ذلك ما كان النبي ﷺ يأخذ به .

إن المسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختص بالعقيدة والتصور العام للوجود أو يختص بالعبادة أو الخلق أو بالمبادئ والأصول الإسلامية إلا من المصدر الربّاني وهو الله ﷻ من خلال القرآن الكريم والسنّة النبويّة المطهرة .

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام: سيد قطب، ص١٩٧ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي: ٢٧٨/١ .

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٥٠٥/٣ .

أما العلوم الأخرى كالطب والفيزياء والكيمياء والفلك والأحياء والصناعة والزراعة وغير ذلك من أمور الدنيا العلمية والعملية يمكن أن يتلقّاها المسلم من المسلم وغيره، لقوله ﷺ: ((أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ))[١] .

وبما أن الدين الإسلامي يحمل صفة الشموليّة التي تؤهله لأن يصلح لكل جنس ولكل عقل فإنّ على الفكر الإسلامي اليوم أن يعيد بناء رؤيته للكون وللمفاهيم الكبرى ويصوغ من جديد إستراتيجية الخروج من النفق الحضاري الذي وصلنا إليه، وبالتّالي فهو مسؤول في عصر العولمة – مسؤولية مباشرة – عن طرح الرؤية الاجتهادية الإسلامية في التنمية والنهضة والتقدّم وإدارة الصراع الفكري، ليكون جدلاً محرّكاً ومفعّلاً لطاقات الأمة، وليس كابحاً لها .

لهذا سار الفكر الإسلامي على هذا الشكل بأن يستمدّ أصوله من الوحي الإلهي ويأخذ المادّيات من مظانّها فبذلك سيكون قادراً على تخليص الأمة والمجتمع الإسلامي الإنساني مما هو فيه، فتمسّكه بالمنهج القويم للإسلام سوف يقضي على السقوط الأخلاقي والحضاري الذي خلّفته الحضارة المادّية، وبالمقابل سينهض بالمسلمين في الجانب المادّي المفقود لديهم وعندها ستستقيم المعادلة ويحصل التقدّم المعهود كما في السابق.

فعلى هذا يظهر لنا الحل الذي ينصّ على عدم عزل الإسلام عن المجتمع من حيث هو دين ودنيا وعلى أنه تتفرع منه العقائد والشريعة الأخلاقية والقيم الحضارية وعدم استبدال الماضي بالحاضر المادّي المليء بصراعات الأجيال المادّية التي هي من نتائج عقول بشرية في حضارة مادّية في أصولها رومانية في عبادتها للقوة، نصرانية في حقدها التاريخي على الأمة الإسلامية .

فالتخلّص من هذه المساوئ المادّية العقلانية يكون بالرجوع إلى منهج القرآن العظيم وسنة النبي الكريم ﷺ.

---

(١) صحيح مسلم: ٩٥/٧ .

الخاتمة

لا بد للباحث في أي موضوع من وضع خاتمة يذكر فيها أهم النتائج التي توصل إليها، فمن خلال الولوج في البحث عن العقبات التي تعترض المشروع الحضاري تبيّن ما يأتي:

١- إن العقبات الخارجية والداخلية لها تأثير مباشر على الفكر الإسلامي خاصّة والمسلمين عامّة .

٢- يمكن تجاوز هذه العقبات بالرجوع إلى منهج قويم وهو منهج السلف الصالح .

٣- الاعتماد على الحضارة الغربية في النواحي الدنيوية لا يبتعد عن القيم والمبادئ العربية الإسلامية .

٤- المشروع الحضاري الإسلامي لا يمكن النهوض به إلّا عبر تفاعلاتنا البحثيّة الصادقة وتأملاتنا الفلسفية الناضجة لاستكشاف ماهيّة الحضارة ومكوّناتها وذلك لا يكون إلا بالرجوع أو الوقوف على أهم العقبات ومعالجتها معالجة منهجية لأنها إن لم تعالج أصبحت حجر عثرة أمام المسلمين في الوقت الحالي الذي كانوا هم السبب في رفد هذه الحركات الفكريّة المادّية من خلال صراعاتهم على المناصب والتعصّب الديني .

لذا كان هذا البحث ليبيّن أهم العقبات التي وضعها الغرب أمام العرب والإسلام، وأهم الحلول التي من خلالها التغلّب والنصرة على أعداء الأمة والدين .

والله وليّ التوفيق ..

المصـــادر و الـمـراجـع

- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني (ط٧/ دار القلم – دمشق ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م) .
- إرشاد النقّاد إلى تيسير الاجتهاد: محمد بن إسماعيل الصنعاني، ت:١١٨٢هـ، تحقيق: إصلاح الدين قبول أحمد (دار السلفيّة – الكويت ١٤٠٥هـ) .
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، للأستاذ الدكتور محمد حمدي زقزوق (ط٢/ دار المنار – القاهرة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م) .
- الإسلام وأصول الحكم: علي عبد الرزاق، تعليق: ممدوح حقّي (مكتبة الحياة، بيروت –لبنان ١٩٦٦م) .
- أصول الحكام وطرق الاستنباط في التشريع الإسلامي : حمد عبيد الكبيسي (ط٣/ مطابع البيان التجارية – دبي ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م) .
- أصول التنصير في الخليج : كونوي زيقلر، ترجمة: مازن مطبقاني (نشر مكتبة ابن القيّم – المدينة المنوّرة) .
- أصول الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، ت: ٤٥٠هـ . (ط٤/ دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م) .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي، ت: ١٣٩٣هـ (مطبعة دار الفكر – بيروت ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م) .
- الأعلام: خير الدين الزركلي (ط٥/ دار العلم والملّايين، بيروت– لبنان ١٩٨٠م).
- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: دراسة وتحقيق: محمد عمارة (ط القاهرة – مصر ١٩٩٣م) .
- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، مالك والشافعي وأبي حنيفة: أبو عمر يوسف النمري القرطبي ابن عبد البر ت: ٤٦٣هـ (دار الكتب العلمية – بيروت) .

- إحياء علوم الدين: للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، خرّج أحاديثه: وهبي سليمان، تعليق: أسامة معمورة (ط١/ دار الفكر، دمشق-سورية ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م) .
- التبشير في منطقة الخليج العربي: د. عبد المالك خلف التميمي (ط١/ دار الشباب للنشر والترجمة والتوزيع - الكويت ١٩٨٢م) ، (ط٢/ دار الشباب - قبرص ١٩٨٨م) .
- التبشير والاستعمار في البلاد العربية، للدكتور مصطفى خالدي - والدكتور عمر فرّوخ (المكتبة العصرية، بيروت - لبنان) .
- التحذير من وسائل التنصير، تأليف : اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء . (ط١/) .
- التنصير تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين: عبد الرحمن بن عبد الله الصالح (ط١/ دار الكتاب والسنّة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م) .
- التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته: علي بن إبراهيم الحمد النملة (ط٢/ ١٤١٩هـ) .
- جذور البلاء: للأستاذ عبد الله التّل (ط٢/ المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) .
- حضارة العرب : غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر (ط٤/ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م) .
- خصائص الفكر الإسلامي: أ.د. محمد عبد اللطيف صالح الفرفور (ط١/ دار المكتبي، دمشق - سورية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م) .
- دلائل النبوّة: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ت: ٤٥٨هـ، تحقيق: عبد المعطي القلعجي (ط١/ دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) .
- سنن الترمذي: للإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ت: ٢٧٩هـ ، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، (دار إحياء التراث العربي - بيروت) .

- السيرة الزنكية، موسوعة الحروب الصليبية: د. علي محمد محمد الصلّابي . (موسوعة الحروب الصليبية) .
- الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف: أ.د. يوسف القرضاوي (ط١٢/ مطبعة أنوار دجلة – بغداد ، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م) .
- صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبّان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢ ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .
- صحيح مسلم: أبو عبد الله مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، (دار الجيل – بيروت، دار الآفاق – بيروت) .
- صيحة تحذير من دعاة التنصير: محمد الغزالي (ط١/ دار نهضة مصر) .
- العدالة الاجتماعية في الإسلام: سيد قطب (ط١٤/ دار الشروق – القاهرة ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م) .
- العلمانية في ميزان العقل: عيد الدويهيس (الكويت ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م) .
- العلمانية نشأتها وتطورها وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة: سفر الحوالي (دار مكّة للطباعة والنشر، جامعة أم القرى- السعودية ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م).
- العولمة: صالح الرقب، (ط١/ ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م) .
- الفكر العربي ومكانته في التاريخ: ديلاس أوليري، ترجمة: د. تمام حسن ، (مكتبة الأسرة –الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، مصر ٢٠٠٧م) .
- قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله: عبد الودود يوسف (دار السلام – القاهرة ١٤١٣هـ – ١٩٩٤م) .
- قاموس الأسقف جرمانوس فرحات (طبع سنة ١٨٤٩م – مدينة مرسيلية – فرنسا) .
- القاموس المحيط: لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقوسي (ط٧/ مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م) .

- لسان العرب: أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي المصري ابن منظور، (ط٤/ دار صادر، بيروت – لبنان) .
- لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لموقف الغرب من نبي الإسلام: باسم الخفاجي (ط١/ مطبعة مجلة البيان – السعودية ١٤٧٢هـ – ٢٠٠٦م) .
- ماذا قدّم المسلمون للعالم، راغب السرجاني (ط١/ مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة – القاهرة ، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م) .
- مجموع الفتاوى: أحمد بن عبد الحليم الحرّاني ابن تيمية، تحقيق أنور الباز وعامر الجزّار، (ط٣/ دار الوفاء ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م) .
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري: د. محسن عبد الحليم، (ط٤/ مطبعة وزارة التربية – العراق ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م) .
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١١هـ – ١٩٩٠م) .
- مسند أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، ترتيب: شعيب الأرنؤوط، (مؤسسة قرطبة – مصر) .
- مسند البزار: أبو بكر أحمد بن عمرو البصري الشيخ، الإمام الحافظ الكبير، ت: ٢٩٢هـ، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، الناشر: مؤسسة علوم القرآن، ومكتبة العلوم والحكم–بيروت ، المدينة – ط١، ١٤٠٩هـ .
- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، تحقيق: مجمع اللغة العربية (دار الدعوة – الإسكندرية – مصر ١٩٦٠م) .
- مهزلة العقل البشري: د. علي الوردي (دار الحياة للنشر والتوزيع –قم – إيران).
- المواقف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الأيجي، تحقيق: د. عبد الرحمن العميرة (ط١/دار الجيل – بيروت ١٩٩٧م) .
- نهضة الحسين، لهبة الدين الحسين (طبعة النجف – العراق، ١٩٤٦م) .

- وعاظ السلاطين: د. علي الوردي (ط٢/ دار كوفان - لندن، توزيع دار الكنوز، بيروت - لبنان، ١٩٩٥م) .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر دار صادر- بيروت .
- الثقافة العربية في عصر العولمة: صحيفة الاهرام (٢٢-٢-٢٠٠٢م) .
- لماذا يمزّق القرآن الكريم؟ : علي بن نايف الشحود (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م / كتاب ألكتروني، عنوان الموقع:

http://www.ojgii.net/upvb/uploads/91d17428ff.gif.

- مع العولمة (صحيفة الإهرام) ٢٠٠١/٩/١٦م .
- موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، علي بن نايف الشحود، كتاب إلكتروني

http://www.ojgii.net/upvb/uploads/91d17428ff.gif.